المشرق

وقفة في قلعة بعلبك

للكاتب الاديب فليكس افندي فارس

قلعة بعلبك هيا كل متهدّمة بجدران متداعية وأعمدة متحيّلة يؤمّها القاصي والدان. للوقوف بين اطلالها والاعجاب بما تمثّل للنظر من عجيب النظام وضخامة البنيان

مشهدٌ تحتار فيه العقول وتصغر لديه النفوس. مشهدٌ طالما استوقف كبار المهندسين للنظر في إحكامه وطالما وقف امامهُ المؤرخ خاشعًا حائرًا لا يجسر ان يلفظ عن زمان تشييده الكلمة الاخيرة

قبالة هذه الآثار المتهدّمة اقف كل يوم لأستقبل الشمس وهي تضيف على الاعمدة الثابتة قبلةً جديدة الى الملايين التي لثمت بها جوانبها من قبل. بازاء هذه الجدران الهائلة اقف مودعًا كوكب النهار وهو يرمّ احجارها بنورهِ المصفرّ. عند هذا الهيكل ابن الاعصار الطوال اقف انا ابن الامس وكلانا نشخص امام عوامل الطبيعة وهي تتابع بنظام سيرها واحد وبحركة واحدة على الحي المنهزم امام السنين والجماد الراسخ في وجه العصور

يلذّ لي ان اناجي هذه الاطلال البوالي فاستعير لها نفسًا من انفس الشعوب التي فنيت بظلّها وأخاطب رسمها العافي باشرف ما يخاطب الانسان بالانسانية والشاعر بالشعور. اخاطب بالذكر والتأمل ذلك الجم الغفير الذي اصبح عفرًا تطأهُ الارجل وقلّما ينبض لذكرهِ قلب

كثيرًا ما وقفت على تلك الآثار المبعثرة المكسّرة. كثيرًا ما احنيت الرأس متأملًا

في تلك الذرّات المبدّدة وما هي الّا رماد العصور البعيدة . كثيرًا ما وقفت مفكّرًا متأثّرًا ولكنني رغمًا عن ذلك لم اكتب شيئًا حتى اليوم

وماذا يمكن ان اسطّر عن هذه الخرائب لو أمسكت القلم لاهدي اخواني ما يلذّ ويفيد . هل اقول لهم قياسات الاعمدة وعلوّها وعرض الاحجار وطولها . ام اكتب عن تاريخ هذه الشواهق المتهدمة ؟

لقد وُصف البناء من قبل هندسةً وقياساً (١ وقد كُتب كثيرًا عن تاريخه ايضًا اما انا فأليح باب هذه الفخامة المدمّرة ليس كالهندس الحامل مقاييس وحبالًا ولا كالمؤرخ تحت ابطه كتاب افتراضات غيره بل كخليقة تعرف حقارتها امام عظمة الكون ومناعيل الزمن ادخل بنفس تحب أن تجد خالقها لدى اثار الزوال الكتابة على الغرر : « وهو الباقي »

أدخل بقلب خفاق ونفس تريد ان تشعر فاقف امام الخرائب كالحياة المتجدّدة امام الموت الشامل امرّ امامها كمرور الاجيال امام هيكل الحب الذي اخلقتهُ الايام ولم تدمّرهُ

أتأمل في كل سرداب رباحة ورواق فلا افتكر بطول هذه ولا بعلو تلك بل اقابل ما بين هذا البنيان والطبيعة الجامدة اقابل بينهُ وبين الجبال والامواه والاشجار . اقيس بمقياس التأمل بين كآبة الخلق ومحاولة البشر . اقابل هذه الضخامة بحقارة من شيّدها وزال فأستخرج من ذلك قياساً تفهمهُ النفس ولا يعرف ماهيتهُ الّا القلائل

امامي ابنيةٌ يتصدع العقل لدى ما بقي منهـا قائمًا وينقبض القلب لدى بقاياها المبعثرة على الارض وهي اشبه بأشلاء اموات ممدّدة شاخصةً الى الاكوان كانها لا تريد أن تفنى

هنا اعمدة قائمة وقد سقط رواقها المديد كانّ السماء التي اصبحت سقفها الوحيد تغار على ما مرّت عليهِ القرون أن يظلل بغير اثيرها الفسيح . لا تريد السماء أن يغطي سواها ارضًا مرّت عليها القرون فلم تعد مختصّة بزمان وشعب

هذه الخرائب اصبحت للمدى يحكمها شيء يشبه اللانهـاية فلا تاوي هذا او

(١ ومن اراد الاطلاع على هذا الوصف الدقيق فليطالع تأليف الفاضل الحاذق ميخائيل افندي ألوف

ذاك ولا يقول احدٌ: « هذه لي » ولكنها كالطبيعة العذراء قائمة من ايدي شعب مجهول كما نرى الكيان الاعذر خارجاً من الازل وهو ارفع عن الادراك . هنا ثلاثة هياكل تدلّ بما ابقت لها الايام من الآثار المطابقة لاصطلاحات الاعصر الخرافية على انها بُنيت للعبادة أُقيمت لناجاة القلب البشري لشعوره بما هو فوق الطبيعة وقد تجسّم امامهُ الهًا

هنا هيكل الشمس حيث عُبدت فانحنت لديها الرُّكب واريقت على مذابحها الدماء. هنا كان يتصوَّر الانسان نور الحياة العتيدة ويشعر بداخله بذلك الانعطاف السامي الخارج مع النفس منذ الازل وهو انجذاب النور للنور فلا يرى ما يشابه انعطافه من الكون المنظور غير هذا الكوكب المتلألئ في الافق كأنهُ المجد والرجاء فيخضع امامهُ ويدين لهُ

هنا على هذه الحجارة الملساء التي صقلتها اقدام الزمان كم جثت ركبةٌ . وكم سقطت دموع . كم تولّد من رجاء . وكم مات من تذكار . كم ارتفعت امالٌ وحبطت امانٍ . كم تلاعبت الأنفس بالحياة وتسلط المعتقد الباطل على التعقل . هنا كم حاول الفكر الانساني أن يعطي الجماد فكرًا ونفسًا فقصرت اعمالهُ ولم يتمكن من ادراك الحقيقة السرمديّة الحيّة القائمة بالتجرد

هنا كان شعبٌ لا اعرف مَن هو . كانت حلقةٌ كبيرة من سلسلة الانسانيّة الغير المتناهية امام الفكر كانت حلقةٌ من هذه الحلقات المرتبطة التي تتدلى بتتابع الى وادٍ مظلم وبئر عميقة فوهتها الموت وقعرها لا يُنظر

هنا كانت قلوب تعبد وتحب بين السرير والكفن كانت تشعر بكل قوى الشعور وكفى دليلًا على ذلك هذه الضخامة الباقية من نتائج اميالها . هنا كان الحبّ قويًا كالموت ولكن زائلًا كالحياة . والغيرة محرقة كالنار ولكن عابرة كالظلّ . . .

هنا تجلّى الله للانسان بواسطة الضمير ولكنَّ الضمير المغشى بحب المجد والفتوح لم يفهم من صفات الله سوى العظمة والسمو والجمال اما المحاولة والحلم والحب فلم يفهمها

ذلك لان الضمير ذلك المهبط الحي للحكمة السرمديّة ذلك المقام الذي تتجلى به الحقائق لدى كلمة الله لهو عرضةٌ للضلال اذا لم يُصدِ بهِ ذاك الصوت العظيم المنحدر الى العالم من اعالي جلجلة الفداء . الضمير هيكلٌ للشعور فكأنما تجلّى بهِ انعطاف اقتعد منهُ غاربًا وساد عليهِ الهًا بالصورة التي يفهمها

الانسان مفطورٌ على التدين لانهُ عبدٌ مطرود يحنُّ الى الكفِّ التي اخرجتهُ من عدن ويتوق الى الفم الذي لفظ لعنة الارض بسبب مخالفتهِ لامر الخالق . وهو لم يصحب معهُ الى هذه الدنيا المحسوسة شيئاً من عالم التجرُّد سوى وجدان ضعيف يرتفع بالبداهة الى ما فوق فتصدُّهُ ظلمات الاوهام الى ما اسفل

هذه هي الهياكل المدمَّرة امامي الهاوية باصنامها وزخارفها الى الارض الساقطة مع اعتقاد مَن بنوها والمحطِّمة مع اوهامهم الفخيمة . اراها تناجي تأملي بحقيقة سامية . اريد ان اهتف بها امام الافكار الجديدة المندفعة الى التلاعب بالوحي والاستناد على ما يدعونهُ وحي الطبيعة المجرد لايجاد شريعة وتصوُّر معاد

يا بني القرون المتاخرة وقفةً معي بين هذه الاطلال البوالي . قفوةً عند هذه الآثار التي انا ابقتها الادهار كعبرةٍ يمثلها الله للقلب المرتقي بالتأمل الى اعالي الايمان . تأملوا عند هذه الجوامد البكماء وهي ناطقة فان العناية لم تذخرها مثالاً للنقش وعلماً للهندسة بل ابقتها بعد قرطجنة وقد سُحقت . بعد برمباي وقد محقت . ابقتها لتعلمنا أنَّ العقل إن لم يستمدَّ من العلاء ادراكاً فهو خابطٌ باوهام صبيانيَّة وان القلب إن لم يتعلم الحب من الشريعة الازلية فيو بَطِرٌ فاسق

هنا كان شعبٌ مثلكم ايها الطبيعيون يريد أن يجد من الطبيعة الهاً ويولد من الوجدان شريعةً قبل أن تدوي على الارض كلمة الحياة . فانظروا الى الاله الذي عبدهُ والى الشريعة التي سنَّها . عقولٌ سامية وقلوبٌ قوية اقدمت على رفع هذه الهياكل ببناء تنحني امامهُ هندسة هذا العصر وجنود امراله . تلك العقول ارادت أن تدرك الاله فعبدت الشمس . تلك القلوب ارادت أن تفهم الحب فوجدت الفواحش

وانتِ ايتها البدعة الطالبة وضع الكلام المنزل في مكان بعيد عن الالفة لانها لا تحتاجه على زعمك . ايتها البدعة الطالبة عبادة الاله وتوليد شريعة من مجرَّد وحي العقل اراكِ الآن بعيدةً جداً عن بلوغ القوة التي كان بها الشعب الذي بنى هذه الهياكل . انتِ الان لا تعبدين شيئاً مما يُعبد وعبثاً تريدين الاستغناء عن الوحي الالهي بتوسيع المعارف وترقية الشعور لانهُ مهما ارتقى عقلكِ فسوف يبقى دون تلك العقول التي ابقت امامنا هذه العجائب . وهب انكِ بلغت تلك القوَّة ولحقتِ بذلك الشعب فلستِ بعابدةٍ في ذلك الحين الَّا ما كانوا يعبدون

ما اعظم هذه البنايات الشامخة امام النظر وما احقرها امام النفس الشاعرة بالعظمة الغير منظورة . ما معنى هذه الارزقة الواسعة ما هي فائدة هذه النقوش التي استغرقت من الحياة اعواماً ومن الفكر كلّ القوى التي كان يجب أن ترتقي الى ما فوق

لماذا تعلو هذه الاعمدة الى قلب السحاب ؟ هل رُفعت لوقاية الإنسان من الحرّ والقرّ؟ اي جسدٍ كان علوّهُ سبعة عشر متراً حتى رفع الاثقال الهائلة الى ذلك العلو ليأوي اليها ويستظل بها ؟ بل ما هي عوامل تلك النفوس التي قبضت القلب حتى ضاق بهِ الفسيح فافسح من ضيق المتاعب مجالاً لامتداد نظره دون جدوى . ما هي تلك القوّة السامية المتولدة من اعتقاد كاذب بل ما هو ذلك الاسترقاق الهائل الذي قاد الالوف من مخلوقات الله لوقف الحياة على عملٍ ارى بهِ من العبث قدر ما اتّسع وعلا

دخلتُ الى هذا الهيكل وبعيني بوارق الاعجاب لدى فخامتهِ ودقة تركيبهِ اما الان وقد حللتُ الفكر من عقال هذه الاعصر التي تميل لكل رائع بالمحسوس فقد اتعبني النظر الى هذه الابنية التي لو رأيتها وبها مجدها القديم لاحتقرتها امام عظمة الضمير فكيف وانا اراها على ما هي تضمُ بنفسها من دلائل الفلسفة ما يحتاج المتمعن أن يولده من نفسهِ . أنتِ جميلةٌ يا قلعة بعلبك لدى مَن يؤلمك وفي مبداه حب العظمة والفنون ولكن جمالكِ يصبح وقراً ثقيلاً على الفكر الساذج الذي لا يحب سوى عظمة النفس بين مجالي الطبيعة العذراء . انتِ عظيمة ايتها الصخور المنحوتة بايادٍ تحوّلت الى رماد ولكنّ عظمتك تعذب النفس التي تعبد مبدأ العظمة واله الكون

لماذا بلّل ترابك عرق المتاعب لماذا تكسرت اعضاء بشرية تحت ضخامتك لماذا سُحقت عظام وتحطمت رؤوس والتحت رقاب لماذا كانت القوى تنحصر لتفوق الاقتدار وتقوم بهذه الاعمال التي استغرقت القرون حتى قاومت القرون . . هل ان تلك المتاعب كانت لتجديد حياةٍ ابلتها الماضي ام لاحياء آيس بتجديد الامل ام لتجفيف دمع اليتيم ورفع ضيم الشقي ؟

إن لم تكن لمثل هذه المقاصد شُيدت فلماذا تعب البشر بها وأي شيء ترجوه البشرية من الجهاد بالكدّ اذا تحوّلت عن الرحمة والعدل وهي تمر بتتابع الى قعر الموت ؟ !!

اواه ما اوسع مطامعك يا قلب . وما اقوى غرورك يا حياة .

نهلةُ ماء ترويك وانت تذخر لظمأك بحراً زاخراً . قطعة قماش تكسوك وانت

تعالج النبات والمعادن لتتدثر بالحرير وتتحلى بالذهب . كوخ يأويك وانت ترفع الاعمدة الى قلب الفضاء وتؤسس الشواهق في عمق الارض لتلقي جسمك المنهوك تحت ظلّ عظيم ولكنهُ باطل

لستُ ممن يحبون الخمود بالفكر والكسل بالحياة ولكنني آسف على المتاعب التي توسع المطامع ولا تفيد الانسانية وأحبُّ اليَّ من هذه المناظر أن أمرَّ على اطلال قرية متهدمة بجدران لم تدوِ الارض لسقوطها واروقة لم تشعر الطبيعة بانطباقها . فهنالك ارى الفناء اقلَّ رهبةً والموت اضعف شوكةً لأن مظاهر المقاومة الضعيفة تجعل القلب اقرب الى التسليم للمشيئة الازليّة . هنالك اقف واذرف دمعةً بطيئة بسكون الندى واترحّم على قسمٍ من البشريّة اتى الحياة وتوارى خلف حجب الموت دون أن يجاهد بالضيم ويولد لنفسهِ الشقاء . هنالك لا ارى قبر صديق اغتالهُ صديقهُ او ضريح ابٍ خانهُ ابنهُ . هنالك لا ارى الهياكل تنطح السحاب وبقايا مساكن الشعب تكاد لا تُرى . هنالك لا ارى آثار العتوّ والتجبّر ولا يدوي باذني صوت الحب المعذب لارضاء واجبات كاذبة . . .

اما هنا فانني ارى كل هذه الفظائع اسمع حفيفاً يشبه صوت الانين الذي يدنمهُ الريح في ليلة ممطرة ولعلَّ ذلك من مرور الهواء على النوافذ التي خرقها الدهر بين الابنية المتداعية الّا انني اسمع هذا الانين برهبة وخشوع بحزنٍ وأسف . واريد أن ارفع رجلي عن هذا العفر الذي داستهُ اقدام السيد والمسود . داستهُ ارجل الذي خدع فساد والذي خضع فضحّى كل شيء حتى قلبهُ

اريد أن اخرج من هذا الهيكل الذي تاه بهِ الوجدان فقد جرحت عيني هذه المناظر التي لا تحفظ شيئاً يدل على عطف ورأفة وإشفاق بل كلها عتوّ وضلال وعبوديّة

اريد ان اذهب الى غدير ماء صافٍ يسيل بهدوء تحت شجرةٍ تتدلى اغصانها الى الارض وهنالك بعيداً عن آثار متاعب الانسانيّة اجلس مفتكراً بالاله الحق الذي يتخذ القلوب هياكلاً اعظم من هذه الهياكل الفانية

(التتمّة لعدد آخر)